المقدمة

الحمد لله رب العالمين المنزل كتابه بلسان عربي مبين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر المحجلين الميامين.

أما بعد :

فإن القرآن الكريم بما اتصف به من سمات عجز عن الإتيان بمثلها البشر ، كان وما زال محط عناية الباحثين والعلماء والمفسرين ، الذين سعوا إلى إظهار لمساته البيانية ، ووجوه البلاغة القرآنية ، إذ خوّل جزيل الطّول ، وسدّد الإصابة في الفعل والقول ، فقد درّت له حلوبة البلاغة ، فاستصفى بعد مخضها الزّبد .

ومن العلماء الذين وضعوا أقدامهم بثبات في طريق التفسير العلامة الطاهر بن عاشور . رحمه الله تعالى . في تفسيره الموسوم : (التحرير والتنوير . تحرير المعنى السديد ، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) .

فهذا التفسير من أجلِّ ما أُلِّف في القرونِ المتأخَّرة ، ومن طالع هذا التفسير ، لا يشك في هذه الحقيقة، التي تظهر علو شأن مؤلفه ، وسعة اطلاعه ومعرفته .

وقد اشتمل هذا التفسير على لمسات بيانية ، ووقفات بين فيها المفسر وجوه الذكر والحذف ، أو التقديم والتأخير ، والتشابه والاختلاف بين الآيات ، فوددت التعريف بهذه اللمسات وإظهارها للقارئ من أجل بيان علو كعب الطاهر في تفسيره ، ونجاحه في الوقوف على بعض أسرار التعبير القرآني .

وتتجلى أهمية هذا البحث في أن كثيراً من المفسرين لا يعنى ببيان اللمسات البيانية في تفسيره ، بل يكتفي بعرض أقوال المسفرين السابقين فقط ، ولأن ابن عاشور أحد المفسرين الذين عنوا بدلالة النص القرآني إذ كان لها أثر ظاهر في تفسيره .

وقد تناول بعض الباحثين هذا التفسير من زوايا مختلفة ، منها (منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير) للباحث نبيل أحمد صقر ، وقد طبع هذا في الدار المصرية سنة (١٤٢٢هـ/٢٠٠١ م) .

و(الترجيحات الفقهية لابن عاشور من خلال تفسيره التحرير والتنوير . دراسة وتحليل) رسالة ماجستير للطالب خالد أحمد برتو محمد المشهداني ، مقدمة إلى الجامعة الإسلامية . بغداد ، كلية الفقه وأصوله ، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) .

و (قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير . دراسة تأصيلية تطبيقية) أطروحة دكتوراه مقدمة من الطالبة عبير بنت عبد الله النعيم إلى جامعة الملك سعود . كلية التربية ، (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) .

و(جهود الإمام الطاهر ابن عاشور في الرد على شبهات النصارى من خلال تفسيره التحرير والتنوير) ، رسالة ماجستير مقدمة من الطالب جابر بن عبد الرحمن بن محمد العتيق إلى جامعة المدينة العالمية . كلية العلوم الإسلامية في ماليزيا ، (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م) .

ولا ادعي الإحاطة بجميع اللمسات البيانية في تفسيره هذا ، ولكني حرصت على إيراد ما أمكنني إيراده في هذا البحث .

وهذا البحث بذرة لدراسة موسعة يمكن أن تتناول المباحث البيانية والبلاغية والصرفية وغيرها فيه .

وقد اقتضت مستلزمات هذا البحث أن اقسمه على مقدمة ، وهي التي بين يدي القارئ الكريم ، وثلاثة مباحث :

المبحث الأول: تعريف موجز بالطاهر بن عاشور .

المبحث الثاني : نظرة في منهج ابن عاشور في الوقوف على اللمسات البيانية .

المبحث الثالث : اللمسات البيانية في سورة البلد .

وختم البحث بخاتمة بينت فيها أهم النتائج والتوصيات .

والله حسبي ، هو مولانا ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

المبحث الأول

تعريف موجز بالطاهر بن عاشور

١ـ اسمه ونسبته وولادته :

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور ، الشهير بالطاهر ابن عاشور ، ولد في ضاحية المرسى بتونس في (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م) ، ويرجع نسبه إلى أسرة علمية عريقة تمتد جذورها إلى بلاد الأندلس ، وقد استقرت هذه الأسرة العريقة في تونس هرباً من محاكم التفتيش ، وحملات التنصير التي تعرض لها المسلمون في الأندلس[١].

٢ ـ نشأته :

ترعرع ابن عاشور في أحضان أسرة علمية ، ونشأ بين أحضان والد يأمل أن ينبغ ولده في العلم على خطى أسلافه ، فحفظ القرآن قبل البلوغ في الرابعة عشر من

---

(١) ينظر : الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، لخير الدين الزركلي الدمشقي، (ت١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م : ١٧٣/٦ .

عمره ، واتجه بعده إلى حفظ المتون السائدة في زمانه ، ثم التحق بجامع الزيتونة سنة (١٣١٠هـ/١٨٨٢م) ، فدرس وأتقن علوم الشريعة واللغة والآداب بل والطب وكذلك اللغة الفرنسية ، وقد ساعده على ذلك ما تمتع به من ذكاء وحافظة القوية وفطنة[١] .

٣ ـ مناصبه :

تخرج الطاهر في جامع الزيتونة عام (١٣١٧هـ/١٨٩٦م)، والتحق بسلك التدريس في هذا الجامع ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى عين مدرساً من الطبقة الأولى بعد اجتياز اختبارها سنة (١٣٢٤هـ/١٩٠٣م). وفي عام (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) عين نائباً أول لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة ، فبدأ بتطبيق رؤيته الإصلاحية العلمية والتربوية ، وأدخل بعض الإصلاحات على الناحية التعليمية ، وحرر لائحة في إصلاح التعليم وعرضها على الحكومة ، فنفذت بعض ما فيها ، وسعى إلى إحياء بعض العلوم العربية ، فأكثر من دروس الصرف في مراحل التعليم ، وكذلك دروس أدب اللغة ، ودرس بنفسه شرح ديوان الحماسة لأبي تمام[٢].

في (صفر ١٣٢٨هـ/١٩١٠م) اختير ابن عاشور ليكون في لجنة إصلاح التعليم الأولى بالزيتونة ، وكذلك في لجنة الإصلاح الثانية (١٣٤٢هـ/١٩٢٤م) ، ثم اختير شيخاً لجامع الزيتونة في (١٣٥١هـ/١٩٣٢م) ، كما كان يشغل منصب شيخ الإسلام المالكي؛ فكان أول شيوخ الزيتونة الذين جمعوا بين هذين المنصبين ، ولكنه لم يلبث أن استقال من المشيخة بعد سنة ونصف السنة ، بسبب العراقيل التي وضعت أمام خططه لإصلاح الزيتونة ، وبسبب اصطدامه ببعض الشيوخ عندما عزم على إصلاح التعليم في الزيتونة[٣].

---

(١) ينظر : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، (ت١٩٤١م)، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ : ٣٩٢ .

(٢) ينظر : مقاصد الشريعة الإسلامية ، محمد الطاهر بن عاشور ، تحقيق ودراسة : محمد الطاهر الميساوي ، دار النفائس ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م : المقدمة ص٧.

(٣) ينظر : محمد الطاهر بن عاشور ـ حياته وآثاره ، بلقاسم الغالي ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م : ١٨.

أعيد تعيين ابن عاشور لجامع الزيتونة سنة (١٣٦٤هـ/١٩٤٥م) ، وفي هذه المرة أدخل إصلاحات كبيرة في نظام التعليم الزيتوني ؛ فارتفع عدد الطلاب الزيتونيين ، وزدادت عدد المعاهد التعليمية. وفي سنة (١٣٧٤هـ/١٩٥٦م) ولدى استقلال تونس ، أسندت إليه رئاسة الجامعة الزيتونية ، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة[١] .

ومن المواقف المشهورة للطاهر ابن عاشور رفضه القاطع استصدار فتوى تبيح الفطر في رمضان ، وكان ذلك عام (١٣٨١هـ/١٩٦١م) عندما دعا الحبيب بورقيبة الرئيس التونسي الأسبق العمال إلى الفطر في رمضان بدعوى زيادة الإنتاج ، وطلب من الشيخ أن يفتي في الإذاعة بما يوافق هذا ، لكن الشيخ صرح في الإذاعة بما يريده الله تعالى ، بعد أن قرأ آية الصيام ، وقال بعدها : "صدق الله وكذب بورقيبة» ، فخمد هذا التطاول المقيت وهذه الدعوة الباطلة بفضل مقولة ابن عاشور[٢] .

٤ ـ مؤلفاته :

له مصنفات كثيرة نافعة في فنون شتى من أهمها :

١. أصول الإنشاء والخطابة.
٢. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام .
٣. أليس الصبح بقريب.
٤. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ثم اختصر الاسم فصار (التحرير والتنوير من التفسير) .
٥. كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ.
٦. مقاصد الشريعة الإسلامية .
٧. موجز البلاغة.

---

(١) ينظر : تراجم المؤلفين التونسيين ، محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م : ص ٢٣.
(٢) ينظر : محمد الطاهر بن عاشور : ١٨.

٨. الوقف وآثاره في الإسلام[١] .

٥ ـ وفاته :

عاش العلامة ابن عاشور قريباً من المائة عام قضاها في العلم متعلماً ومعلماً ، ومصلحاً وموجهاً ومرشداً . وكانت وفاته . رحمه الله تعالى . في الثالث عشر من شهر رجب من عام ثلاثة وتسعين وثلاثمائة وألف (١٣٩٣/٧/١٣) من هجرة الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه وعلى حسب التاريخ الميلادي (١٢ أغسطس ١٩٧٣م). وقيل : إن وفاته كانت يوم الأحد بالمرسى في ١٣٩٤/٧/١٣هـ ووري التراب في مقبرة الزلاج في مدينة تونس[٢].

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، (ت١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م : المقدمة ٩/١ .

(٢) ينظر : شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، للشيخ محمد الحبيب بن الخوجة ، الدار العربية للكتاب تونس ، بلا تاريخ : ١٦٩/١ .

المبحث الثاني

نظرة في منهج ابن عاشور
في الوقوف على اللمسات البيانية

كتب ابن عاشور في المقدمة العاشرة من تفسيره بحثاً " في إعجاز القرآن" ، بيَّن فيه بعض ملاحظاته الخاصة ، وما يعنينا من هذا البحث هنا ملاحظاته وانطباعاته البلاغية التي تبين منهجه في الوقوف على اللمسات البيانية ، وإشاراته إلى بعض وجوهها التي وردت في القرآن الكريم ، ومما جاء فيه : حديثه عن بعض وجوه البلاغة مثل :

حسن المطابقة[١] .

الالتفات[٢] .

الاستعارة[٣] .

التشبيه[٤] ، وعناية العرب بهما.

---

(١) المطابقة : وتسمى المكافأة ، وهي أن تتوافق عبارة مع أخرى في المعنى وإن لم تتفق في الألفاظ ، مثل قولهم : " لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية" . مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي ، (ت٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م : ٩٧ .

(٢) الالتفات : العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم أو عكس ذلك . وقيل : نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أعني من التكلم أو الخطاب ، أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول هذا هو المشهور . وقال السكاكي : إما ذلك أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره . وله فوائد منها : تطرية الكلام ، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد وهذه فائدته العامة . ينظر : البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع، للدكتور أحمد مطلوب، جامعة بغداد، ١٩٨٠م : ٢٦٣.

(٣) الاستعارة : هي اللفظ المستعمل فيما يشبه معناه الأصلي لعلاقة المشابهة ، أو هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة . شرح التلخيص في علوم البلاغة، لجلال الدين بن عبدالرحمن القزويني، (ت٧٣٩هـ)، دار الجيل، بيروت، لبنان، بلا تاريخ : ٣٣٩ .

(٤) التشبيه : ويقال له التمثيل عند المتقدمين ، وله تعريفات عدة ، أبرزها : هو الجمع بين الشيئين أو الأشياء بمعنى أو بواسطة الكاف ونحوها . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، (ت٦٦٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م: ٢٦٣/١ .

قال : " وفيه التنبيه على حسن المطابقة ، كقوله : ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ ﴾[١] ، والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ ﴾[٢] . (١)، وقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٣] . ولذلك فنحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز :

نرى من أفانين الكلام الالتفات ، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة إلى طريق آخر منها، وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جني شجاعة العربية ؛ لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال "[٤] .

وقال : " وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلى في باب البلاغة، وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾[٥] ، ﴿ وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ ﴾[٦] ، وقوله: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ ﴾[٧] ، وقوله: ﴿ يا

---

(١) سورة الحج : من الآية ٤ .
(٢) سورة العنكبوت : من الآية ٤٣ .
(٣) سورة إبراهيم : من الآية ٢٥ .
(٤) التحرير والتنوير : ١٠٩/١ . وينظر : البرهان في علوم القرآن، لأبي عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي، (ت٧٩٤ هـ)، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ : ٤٥٨/٣ .
(٥) سورة مريم : من الآية ٤ .
(٦) سورة الإسراء : من الآية ٢٤.
(٧) سورة يس : من الآية ٣٧

أَرْضُ ابْلَعِي ﴾[١] (١)، وقوله: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾[٢] إلى غير ذلك من وجوه البديع "[٣] .

وقال : " ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس، وأحسنه ما وقع في القرآن كقوله تعالى: ﴿ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾[٤] ، احتراس عن كراهة الطعام: ﴿ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾[٥] احتراس عن أن تتخلله أقذاء من بقايا نحلة "[٦] .

وتحدث عن التقديم والتأخير وأثرهما في إضفاء لون بلاغي ولمسات بيانية على النص ، قائلاً :

"وإن للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها وسننبّه على ما يلوح منها في مواضعه إن شاء الله. وإليك مثلا من ذلك يكون لك عوناً على استجلاء أمثاله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً* لِلطَّاغِينَ مَآباً ﴾[٧] إلى قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً* حَدائِقَ وَأَعْناباً إلى قوله: وَكَأْساً دِهاقاً* لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً ﴾[٨] ، فكان للابتداء بذكر جهنم ما يفسر المفاز في قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً ﴾ أنه الجنة ؛ لأن الجنة مكان فوز ، ثم كان قوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً ﴾ ما يحتمل لضمير (فيها) من قوله : ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها ﴾ أن يعود إلى ﴿ وَكَأْساً دِهاقاً ﴾ وتكون (في) للظرفية المجازية ، أي : الملابسة أو السببية ، أي : لا يسمعون في ملابسة شرب الكأس ما يعترى شاربيها

---

(١) سورة هود: من الآية ٤٤.
(٢) سورة البقرة : من الآية ١٣٨ .
(٣) التحرير والتنوير : ١٠٩/١. وينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، للدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م : ٢/ ١٧٠.
(٤) سورة محمد: من الآية ١٥.
(٥) سورة محمد: من الآية ١٥.
(٦) التحرير والتنوير : ١٠٩/١
(٧) سورة النبأ : الآيتان ٢١ ـ ٢٢ .
(٨) سورة النبأ : الآيات ٣١ ـ ٣٥ .

في الدنيا من اللغو واللجاج، وأن يعود إلى (مفازا) بتأويله باسم مؤنث وهو الجنة ، وتكون (في) للظرفية الحقيقية ، أي : لا يسمعون في الجنة كلاماً لا فائدة فيه ولا كلاماً مؤذياً . وهذه المعاني لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ، ولم يعقب بكلمة (مفازا) ، ولم يؤخر (وكأسا دهاقا) ولم يعقب بجملة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً ﴾ ... الخ[١] .

فالتقديم والتأخير يهذب العبارات من حشو الكلام ، ويزيد من سبك العبارة ، ورصانتها وقوتها ، وهذا المنهج يتوافق مع ما عرف عنه العرب من إيجاز في التعبير العربي .

ويتحدث عن التوافق القائم بين توظيف الألفاظ في السياق القرآني العام قائلاً : " ومما أعده في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة، وأشملها لمعان عديدة مقصودة ، بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها، ولا تجدها مستعملة، لا في حقائقها مثل إيثار كلمة (حرد) في قوله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ﴾[٢] ، إذ كان جميع معاني الحرد صالحة للإرادة في في ذلك الغرض، أو مجازات ، أو استعارات ، أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام، فإن اقتضى الحال تصرفاً في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين ، وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾[٣] ، فجاء فعل (أتوا) مضمناً معنى مرّوا فعدي بحرف على؛ لأن الإتيان تعدى إلى اسم القرية والمقصود فيه الاعتبار بمآل أهلها، فإنه يقال : أتى أرض بني فلان، ومر على حي كذا، وهذه الوجوه كلها لا تخالف أساليب الكلام البليغ، بل هي

---

(١) التحرير والتنوير : ص ١١١ .
(٢) سورة القلم: من الآية ٢٥ .
(٣) سورة الفرقان : من الآية ٤٠ .

معدودة في دقائقه ونفائسه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها "[١].

وكان . رحمه الله تعالى . عندما ينقل أقوال المتقدمين يناقشها ويرجح بينها متى اقتضى الأمر ذلك ، أو يرفض بعضها كما كان يفعل مع أقوال الزمخشري .

وأنه أخذ البلاغة من مصادر متعددة، قد ذكرها على درجات متفاوتة، واكثر الاقوال ذكراً في تفسيره كانت للجاحظ والباقلاني وعبد القادر الجرجاني والزمخشري، وكان للأخير وعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى، وكان للأخير نصيبا وافرا، يتعقب ابن عاشور أقواله، إن وافقه حينا فهو يعارضه في أحايين كثيرة كأنه ينتظر منه الذلة الواحدة ليفتح عليه بابا من النقد الشديد والسخرية الخاطفة.

ومن نقولاته عن المتقدمين مما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[٢].

قال : " قال الشيخ في دلائل الإعجاز : ومن شأن (إنَّ) إذا جاءت على هذا الوجه ، أي : إن تقع إثر كلام وتكون لمجرد الاهتمام أن تغني غناء الفاء العاطفة (مثلاً) وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً فأنت ترى الكلام بها مقطوعاً موصولاً ، وأنشد قول بشار :

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ ... إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ[٣]

وقول بعض العرب:

فَغَنِّهَا وَهْيَ لَكَ الْفِدَاءُ ... إِنْ غِنَاءَ الإِبِلِ الْحُدَاءُ[٤]

فإنهما استغنيا بذكر (إنَ) عن الفاء، وإن خلفاً الأحمر[١] لما سأل بشاراً لماذا لم يقل : (بكراً فالنجاح في التبكير) أجابه بشار بأنه أتى بها عربية بدوية ولو قال : (

---

(١) التحرير والتنوير : ص ١١٣ .
(٢) سورة البقرة : من الآية ٣٢ .
(٣) البيت لبشار بن برد، (ت١٦٧ هـ)، ديوان بشار ، الناشر العلامة محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، تونس، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م : ٢٠٣/٣ .
(٤) البيت من الرجز ، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري بن دريد، (ت٣٢١هـ)، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م : ١٠٤٧/٢.

فالنجاح) لصارت من كلام المولدين (أي أجابه جواباً أحاله فيه على الذوق) وقد بين الشيخ عبد القاهر سبَبه . وقال الشيخ في موضع آخر : ألا ترى أن الغرض من قوله : (إن ذاك النجاح في التبكير) أن يبيَّن المعنى في قوله لصاحبيه (بكرا) وأن يحتج لنفسه في الأمر بالتبكير ويبين وجه الفائدة منه) انتهى[٢] .

ومن معارضاته ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾[٣] .

قال : "واعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ قد جعل في علم المعاني مثالاً للكلام الجاري على أسلوب المساواة دون إيجاز ولا إطناب. وأول من رأيته مثّل بهذه الآية للمساواة هو الخطيب القزوينى في (الإيضاح)[٤] ، وفى (تلخيص المفتاح)[٥] ، وهو مما زاده على ما في (المفتاح) ، ولم يمثل صاحب المفتاح للمساواة بشيء، ولم أدر من أين أخذه القزوينى، فإن الشيخ عبد القاهر لم يذكر الإيجاز والإطناب في كتابه "[٦] .

ومن اعتراضاته على الزمخشري ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾[٧] .

---

(١) هو أبو محرز خلف بن حيان ، راوية ، عالم بالأدب ، شاعر من أهل البصرة ، كان أبواه موليين من فرغانة ، كان يضع الشعر وينسبه للعرب . له ديوان شعر ومصنفات في النحو . توفي نحو سنة (١٨٠هـ). ينظر : مراتب النحويين ، لأبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي ، (ت٣٥١هـ)، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر، ١٩٥٥م : ٢٥ .

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبدالقادر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، (ت٤٧١هـ)، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١ م : ص١٧٩ ـ ١٨٠، والتحرير والتنوير:١/٤١٤-٤١٥.

(٣) سورة فاطر : من الآية ٤٣ .

(٤) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع على مختصر تلخيص المفتاح، لأبي عبدالله جلال الدين بن سعد الدين أبي محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني، (ت٧٣٩هـ)، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٨م : ١٨٠/٣.

(٥) ينظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، (ت١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب ، مصر ، ط١٧ ، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م : /٣٣١ .

(٦) التحرير والتنوير : ٣٣٦/٢٢ .

(٧) سورة القلم : الآية ١٦ .

قال: " ذكر (والْخُرْطُومِ) أريد به الأنف . والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل، وقد خلط أصحاب اللغة في ذكر معانيه خلطاً لم تتبين منه حقيقته من مجازه. وذكر الزمخشرى في (الأساس)[١] معانيه المجازية ولم يذكر معناه الحقيقي، وانبهم كلامه في الكشاف[٢] إلا أن قوله فيه: وفى لفظ الخرطوم استخفاف وإهانة، تقتضى أن إطلاقه على أنف الإنسان مجاز مرسل. وجزم ابن عطية[٣] أن حقيقة الخرطوم مخطم السبع، أي : أنف مثل الأسد، فإطلاق الخرطوم على أنف الإنسان هنا استعارة كإطلاق المشفر وهو شفة البعير على شفة الإنسان، في قول الفرزدق[٤]:

فَلَوْ كُنْتَ ضَبِّيًّا عَرَفْتَ قَرَابَتِي ... وَلَكِنَّ زِنْجِيٌّ غَلِيظُ الْمَشَافِرِ"[٥]

فقد عارض ابن عاشور أصحاب اللغة لعدم توضحيهم حقيقة الخرطوم ، ولخلطهم المجاز بالحقيقة ، والذي ترجح لديه أن هذا من قبيل الاستعارة .

---

(١) ينظر : أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م : ٢٤٠/١.

(٢) ينظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ : ٥٥٨/٤ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المعروف بـ(تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي، (ت٥٤١هـ)، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م : ٣٤٧/٥ .

(٤) ديوان الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة، (ت١١٠ هـ)، لجيمس د . سايمز، مكتبة الثقافة العربية، بغداد . العراق، بلا تاريخ : ص ٧٧ .

(٥) التحرير والتنوير : ٧/٢٩ .

المبحث الثالث

اللمسات البيانية في سورة البلد

اشتمل تفسر ابن عاشور . رحمه الله تعالى . على عدد من اللمسات البيانية في سورة البلد ، وهي :

١ ـ دلالة القسم بـ(لا) :

اختلفت أقوال النحاة في دلالة (لا) هنا ، على ثلاثة أقوال :

الأول . إنها زائدة لتوكيد القسم بمعنى (أقسم) ، وهذا الذي اختاره ابن عاشور[١] ، واكتفى به ، وهناك قولان آخران لم يذكرهما ، هما :

الثاني . هي لنفي القسم ، أي : إن الأمر لا يحتاج للقسم[٢] .

الثالث . إنها نفي لبيان الاهتمام ؛ مثل قولك : لا أوصيك بكذا ، بمعنى : لا أحتاج أن أوصيك[٣] .

٢ ـ دلالة (حِلٌّ) :

استخدمت لفظة (حِلٌّ) هنا لتعني أمرين معاً :

أ . الحالّ أو المقيم ، أي : وأنت حالٌ في البلد ، وجاء بهذا التصريف دون غيره من التصريفات ؛ لأن (حل) تأتي بمعنى اسم المفعول ، وتعني : (مُستحِل) ، أي : لا تراعى حرمتك في بلد آمن ، وفي هذه الحالة تكون (لا) نافية ، قال ابن عاشور : " (فيجوز أن يكون) حل (اسم مصدرِ أحَلّ ، أي أباح ، فالمعنى وقد جعلَك أهلُ مكة حلالاً بهذا البلد الذي يحرم أذى صيده وعَضْدُ شجره ، وهم مع ذلك يُحلون قتلك وإخراجَك ... فيكون المقصود من هذا الاعتراض التعجيب من مضمون الجملة وعليه فالإخبار عن ذات الرسول . صلى الله عليه وسلم . بوصف (حِلّ) يقدر فيه

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٤٥/٣٠.

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، (ت٤٣٧هـ)، تحقيق طلبة كلية الدراسات العليا والبحث العلمي ـ جامعة الشارقة، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي، الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨ م : ٨٢٧٢/١٢ .

(٣) تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، (ت٤٨٩هـ)، تحقيق : ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ـ السعودية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ـ ١٩٩٧م : ٢٢٦/٦.

مضاف يعيِّنه ما يصلح للمقام ، أي : وأنت حلال منك ما حُرِّم من حقِّ ساكن هذا البلد من الحُرمة والأمن . والمعنى: التعريض بالمشركين في عدوانهم وظلمهم الرسول . صلى الله عليه وسلم . في بلد لا يظلمون فيه أحداً ، والمناسبة ابتداء القسم بمكة الذي هو إشعار بحرمتها المقتضية حرمة من يحل بها ، أي فهم يحرِّمون أن يتعرضوا بأذى للدواب ، ويعتدون على رسول جاءهم برسالة من الله "[١]

ب . بمعنى حلال ، أي : حلال أن تقتل وتأسر من تشاء في ذلك البلد ، وذلك في يوم الفتح ؛ لأن أهل البلد جاءوا بما يستحلون به حرمتهم فرفعت الحرمة عنهم فأصبح حِلاً فتكون (لا) للنفي . قال ابن عاشور : " يجوز أن يكون (حِل) اسماً مشتقاً من الحِلّ وهو ضد المنع ، أي : الذي لا تَبعة عليه فيما يفعله ... أي : ما صنعت فيه من شيء ، فأنت في حلّ ، أو أنت في حِل مِمن قَاتلك أن تقاتله "[٢] .

ولو جاء باسم الفاعل (حال) لاقتصر على معنى واحد من هذه المعاني المتعددة ؛ لكن المطلوب كل هذه المعاني فجاءت كلمة (حِل) لمناسبتها لمقتضى المعنى ، قال ابن عاشور : " وعلى كلا الوجهين في محمل صفة (حِل) هو خصوصية للنبي . صلى الله عليه وسلم . "[٣]

ج . وهناك قول آخر نقله ابن عاشور واستبعده وهو : " إن معنى (وأنت حل بهذا البلد) أنه حَال ، أي : ساكن بهذا البلد ... وهو يقتضي أن تكون جملة (وأنت حلّ) في موضع الحال من ضمير (أقسم) ، فيكون القسم بالبلد مقيداً باعتبار كونه بلَد محمد . صلى الله عليه وسلم . وهو تأويل جميل لو ساعد عليه ثبوت استعمال (حِلّ) بمعنى : حَالّ ، أي : مقيم في مكانٍ ؛ فإن هذا لم يرد في كتب اللغة "[٤] .

٣ ـ تكرير البلد :

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٤٧/٣٠ .
(٢) التحرير والتنوير : ٣٤٧/٣٠ .
(٣) التحرير والتنوير : ٣٤٧/٣٠ .
(٤) التحرير والتنوير : ٣٤٨/٣٠ .

تكرر لفظ (البلد) مرتين ، كما يقول ابن عاشور : " إظهار في مقام الإضمار لقصد تجديد التعجيب ، ولقصد تأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه ، والشديد على المشركين أن يَخْرُج عن حوزتهم "[١] .

أي أن التكرار جاء لسببين :

الأول . لتعظيم البلد الحرام .

الثاني . لتنوع حال البلد ، فمكة قبل الهجرة ليس هي نفسها بعد الفتح ، ففي الحال الأولى : هي بلد حرام لا يسفك فيه دمٌ ولا يروّع فيه آمن ؛ ولكن الله تعالى أحلّها في يوم الفتح لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . ؛ فكأنما البلد صار غير البلد[٢] .

٤ ـ دلالة : (**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**) :

يفيد هذا التعبير عدة دلالات:

يرى ابن عاشور : أن المقصود به هو إبراهيم . عليه السلام . وأن ذريته هو رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، قال : " و (والد) وقع منكراً ، فهو تنكيرَ تعظيم ، إذ لا يحتمل غير ذلك في سياق القسم ، فتعين أن يكون المرادَ والداً عظيماً ، والراجح عمل والد على المعنى الحقيقي بقرينة قوله : (وما ولد) ، والذي يناسب القسم بهذا البلد أن يكون المراد ب(والد) إبراهيمَ . عليه السلام . ؛ فإنه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجَر .... ولأنه والد محمد . صلى الله عليه وسلم . "[٣] .

وهناك أقوال أخرى للمفسرين لم يشر إليها ابن عاشور ، وهي :

المقصود به آدم وذريته[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٤٩/٣٠ .

(٢) معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي)، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت٥١٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م : ٤٢٦/٨.

(٣) التحرير والتنوير : ٣٤٩/٣٠ .

(٤) مفاتيح الغيب المعروف بـ(التفسير الكبير)، وبـ(تفسير الرازي)، لأبي عبدالله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب الرازي، (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، مصر ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ : ١٦٥/٣١.

المقصود كلّ والد وما ولد من الأناسيّ والبهائم[١] .

٥ ـ دلالة (ما) :

عن دلالة (ما) في قوله تعالى : (وما ولد) ، يقول ابن عاشور: "وجيء باسم الموصول (مَا) في قوله : (وما ولد) دون (مَن) مع أن (مَن) أكثرُ استعمالاً في إرادة العاقل ، وهو مراد هنا ، فعُدل عن (مَن)؛ لأن (ما) أشدُّ إبهاماً ، فأريد تفخيم أصحاب هذه الصلة ، فجيء لهم بالموصول الشديد الإبهام لإرادة التفخيم "[٢] .

وهناك دلالة أخرى ذكرها المفسرون لم يشر إليها ابن عاشور : وهي أن المقصود كلّ والد من البشر والبهائم ، ولذا لم يقل : ومن ولد ، وإنما قال وما ولد ، فالمقصود به العموم وليس الخصوص ، ومن جملته آدم وذريته ، وخصص بعد[٣] .

٦ ـ دلالة (الإنسان) :

نقل ابن عاشور أقوال المفسرين في دلالة (الإنسان) في السورة ، وابتدأ بما ترجح لديه ، وقال : " والإنسان يجوز أن يراد به الجنس ، وهو الأظهر ، وقولُ جمهور المفسرين ، فالتعريف فيه تعريف الجنس ، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾[٤] إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين ، فالعموم عموم عرفي ، أي : الإنسان في عُرف الناس يومئذ ، ولم يكن المسلمون إلا نفراً قليلاً ، ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإنسان مراداً به الكافرون من الناس "[٥] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، (ت٦٧١هـ)، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م : ٦١/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير : ٣٤٩/٣٠ ـ ٣٤٥.

(٣) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي ، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن ، ط٣ ، ١٤٢٣هـ ـ٢٠٠٣م : ص ٢٨٣.

(٤) سورة البلد : الآية ٥ .

(٥) التحرير والتنوير : ٣٤٥/٣٠.

ثم ذكر أقوالاً أخرى مرجوحة ، وقال : " وليس لهذه الأقوال شاهد من النقل الصحيح ولا يلائمها القَسَم ولا السياق "[١] .

٧ ـ دلالة (خلقنا) :

ذكر ابن عاشور وجهة إيراد لفظة (خلقنا) بدل (جعلنا) أو غيرها من الألفاظ المقاربة ، بقوله : " والخلق : إيجاد ما لم يكن موجوداً، ويطلق على إيجاد حالة لها أثر قويّ في الذات ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾[٣] ، فهو جعل يغير ذات الشيء "[٤] .

أي إن الخلق يفارق الجعل ، بأن الخلق فيه قدرة ذاتية على التغيير بخلاف الجعل ، وهذا مؤذن بتبدل حال الإنسان من حال إلى آخر ، وأن خلقه في كبد لا يمنع من تبدل حاله إلى اليسر والرخاء .

٨ ـ دلالة الكبد :

ابتداء انتقد ابن عاشور المفسرين السابقين أنهم عنوا ببيان معنى الكلمة ؛ ولكنهم لم يبينوا ارتباطها بالسباق والسياق ، فقال : " وقد تعددت أقوال المفسرين في تقرير المراد بالكَبَد ، ولم يعرج واحد منهم على ربط المناسبة بين ما يفسِّر به الكَبَد ، وبين السياق المسوق له الكلام ، وافتتاحِه بالقسم المشعر بالتأكيد وتوقع الإنكار ، حتى كأنَّهم بصدد تفسير كلمة مفردة ليست واقعة في كلام يجب التِئامُه ، ويَحِق موائمة ، وقد غضُّوا النظر عن موقع فِعل (خلقنا) على تفسيرهم الكبد إذ يكون فعل (خلقنا

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٤٥.
(٢) سورة الزمر : من الآية ٦ .
(٣) سورة المائدة : من الآية ١١٠ .
(٤) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥٠ .

) كمعذرة للإنسان الكافر في ملازمة الكَبد له ، إذ هو مخلوق فيه . وذلك يحط من شدة التوبيخ والذم "[١] .

ويبين وجه الارتباط بقوله : " فالذي يلتئم مع السياق ، ويناسب القسم : أن الكبد التعب الذي يلازم أصحاب الشرك من اعتقادهم تعدد الآلهة ، واضطرابُ رأيهم في الجمع بين ادعاء الشركاء لله تعالى ، وبين توجّههم إلى الله بطلب الرزق وبطلب النجاة إذا أصابهم ضر ، ومن إحالتهم البعث بعد الموت مع اعترافهم بالخلق الأول فقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[٢] دليلاً مقصوداً وحده ، بل هو توطئة لقوله : ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾[٣] . والمقصود إثبات إعادة خلق الإنسان بعد الموت للبعثِ والجزاء ؛ الذي أنكروه ، وابتدأهم القرآن بإثباته في سُور كثيرة من السور الأولى "[٤] .

فالمعنى : " أيحسب أن لن نقدر عليه بعد اضمحلال جسده فنعيده خلقاً آخر ، فهو في طريقة القسم والمُقسم عليه بقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [٥]، أي : كما خلقناه أول مرة في نَصَب من أطوار الحياة كذلك نخلقه خلقاً ثانياً في كَبدٍ من العذاب في الآخرة لكفره "[٦] .

وجاء ارتباط الكبد بالسياق والمساق من وجوه :

أ . الشدة والمشقة : أي إنه يكابد مشاق الدنيا والآخرة ، ولم يقل خلقنا الإنسان مكابداً ، بل قال تعالى : (في كبد) ، تعني : أنه مغمور في الشدائد والمشقات ، وهي تحيط به ، وهو منغمر فيها إلى أن يقتحم العقبة فأما أن ينجو أو أن يكون في النار.

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥١.
(٢) سورة البلد : الآية ٤.
(٣) سورة البلد : الآية ٥ .
(٤) سورة البلد : الآية ٥ .
(٥) سورة القيامة : الآيات ١ ـ ٤ .
(٦) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥١ .س

ب . للقوة والصلابة والشدة : لأن الكبدة هي القطعة من الأرض الصلبة يقال ؛ فالذي خُلق للمشاقّ يجب أن يكون متحملاً للشدائد ، فهي من لوازم المعنى الأول[١] .

وعن ارتباط الجواب بالقسم ، فالسورة كلها مبنية على الكبد ، وكل تعبير فيها مبني على ذلك : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[٢] ، فمن حيث ارتباطها بـ(حل) ، فهي تختلف باختلاف معنى الكلمة :

إذا كان المعنى (حالّ) ، فهو يلقى من قومه ما يلقاه من العنت ، فهو في كبد ممل يلاقيه من المشقة وهو يلقاها بقوة وثبات وتحمّل. وإذا كان بمعنى (مستحل) لا تراعى حرمته ، فهو دليل على أنه في كبد يُحارب من قومه ويحاولون قتله . وإذا كان المعنى : (حلال في البلد) ، أي : ضد الحرام ، فهو . صلى الله عليه وسلم . يحلّ له أن يقتل ويأسر، فالكفار هم في كبد ومشقة وعنت ، أما المسلمون ففي قوة. وهكذا يرتبط الجواب بالقسم من كل ناحية ، وفي كل معنى من المعاني. وكذلك ارتباط (ووالد وما ولد) فالولادة مشقة وعنت وتحتاج إلى مثابرة وقوة للتربية، كما هي مرتبطة بما بعدها من اقتحام العقبة ومشاقّ الجوع في يوم ذي مسغبة[٣] .

٩ ـ دلالة (النجدين) :

ذكر في هذه السورة النجدين ، في حين جاء ذكر السبيل أو الصراط في غيرها من السور ، والحكمة من هذا كما يقول ابن عاشور : " واستعير النجدان للخير والشر ، وجعلا نجدين لصعوبة اتباع أحدهما وهو الخير فغلِّب على الطريقين ، أو لأن كل واحد صعب باعتبار ، فطريق الخير صعوبته في سلوكه ، وطريق الشر صعوبته في عواقبه ، ولذلك عبَّر عنه بعدَ هذا بـ(العَقَبة) "[٤] .

---

(١) ينظر : لمسات بيانية : ٢٦٦ .
(٢) سورة البلد : الآيتان ١ ـ ٢ .
(٣) ينظر : لمسات بيانية : ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٤) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥٥ .

وإن اختيار (النجد) المعبر عن صعوبة اتباع الطريق ، يناسب سياق السورة التي تصور غلبة الكبد والمشقة على حياة الإنسان ، وهذا المعنى لا يتوافر في الصراط الذي يغلب عليه الاستقامة ، والسبيل يغلب عليه الراحة ويتوج غالباً بالخير .

١٠ ـ دلالة العقبة :

تكرر في السورة ذكر العقبة كما يقول ابن عاشور : " للتنويه بها وأنها لأهميتها يَسأل عنها المخاطب هل أعلَمَهُ مُعْلِم ما هي ؟ أي : لم يقتحم العقبة في حال جَدارتها بأن تُقتحم . وهذا التنويه يفيد التشويق إلى معرفة المراد من العقبة "[١] .

١١ ـ دلالة (مسغبة) :

يقول ابن عاشور : " والمسغبة : الجوع وهي مصدر على وزن المَفْعَلَة ، مثل المَحْمَدة والمَرْحَمَة مِن سَغِبَ كفَرِح سَغَباً إذا جاع . والمراد بـ(يوم ذي مسغبة) زمانٌ لا النهار المعروف . وإضافة (ذي) إلى (مسغبة) تفيد اختصاص ذلك اليوم بالمسغبة ، أي : يوم مجاعة ، وذلك زمن البَرد وزمنُ القَحط . ووجه تخصيص اليوم ذي المسغبة بالإطعام فيه أن الناس في زمن المجاعة يشتد شحهم بالمال خشية امتدادِ زمن المجاعة والاحتياج إلى الأقوات . فالإطعام في ذلك الزمن أفضل ، وهو العقبة ودون العقبة مصاعد متفاوتة "[٢] .

أي إنه يرى أن استخدام (المسغبة) لتدل على شيوع الجوع في المجتمع ، وهو ما عبر عنه بقوله (زمن القحط) ، فهذا لا يعني إلا مجاعة عامة ، لذلك جيء بهذا اللفظ دون غيره من الألفاظ مثل الجوع وغيره.

١٢ ـ دلالة (أو) :

قال تعالى : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾"[٣] ، يقول ابن عاشور :" و (أو) للتقسيم وهو معنى من معاني (أو) جاء من إفادة التخيير "[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥٧ .
(٢) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥٨ .
(٣) سورة البلد : الآيتان ١٥ ـ ١٦.
(٤) التحرير والتنوير : ٣٠/٣٥٩ .

ومراده من ذلك أنه استخدم (أو) بدل حرف العطف (الواو) ؛ لأن الواو يدلّ على أن اقتحام العقبة لا يتم إلا إذا اجتمع :إطعام اليتيم والمسكين وفك الرقبة ؛ ولكن المقصود أنه يكفي فعل واحد من هذه الأمور تيسيراً على العباد .

الخاتمة

الحمد لله حق حمده ، والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

بعد هذا العرض أذكر أهم النتائج والتوصيات بما يأتي :

أولا . النتائج :

١. إن الطاهر بن عاشور من المفسرين المتأخرين ؛ ولكنه امتلك من مقومات التفسير ما أهل تفسيره لأن يكون من التفاسير المهمة المعتمدة .
٢. كانت عناية ابن عاشور بالمسائل البلاغية واللمسات البيانية في تفسيره ظاهرة وله إضافات جيدة وبارعة .

٣. بين هذا التفسير أهمية الجانب اللغوي في تفسير سورة البلد، وأنه قادر على الكشف عن مضامين لا يتأتى الكشف عنه إلا بمعرفة الخصائص اللغوية .

ثانياً ـ التوصيات :

التوسع في هذا النمط من الدراسات اللغوية والبيانية لأهميتها في استجلاء معاني النص القرآني ، وأن تجري دراسة اللمسات البيانية لكل تفسير على حدة .

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

١. أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط١، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م .
٢. الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، لخير الدين الزركلي الدمشقي، (ت١٣٩٦هـ . ١٩٧٦م)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
٣. الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع على مختصر تلخيص المفتاح، لأبي عبدالله جلال الدين بن سعد الدين أبي محمد ابن عبدالرحمن

الخطيب القزويني، (ت٧٣٩هـ)، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٨م .

٤. البرهان في علوم القرآن، لأبي عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله ابن بهادر الزركشي الشافعي، (ت٧٩٤ هـ)، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ .

٥. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، (ت١٣٩١هـ)، مكتبة الآداب ، مصر ، ط١٧ ، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

٦. البلاغة العربية المعاني والبيان والبديع، للدكتور أحمد مطلوب، جامعة بغداد، ١٩٨٠م .

٧. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، (ت١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٨. تراجم المؤلفين التونسيين ، محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٩. تفسير السمعاني، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، (ت٤٨٩هـ)، تحقيق : ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض . السعودية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م . ١٩٩٧م .

١٠. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، (ت٦٧١هـ)، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م .

١١. جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري بن دريد، (ت٣٢١هـ)، تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م .

١٢. دلائل الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبدالقادر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، (ت٤٧١هـ)، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م .
١٣. ديوان الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة، (ت١١٠ هـ)، لجيمس د . سايمز، مكتبة الثقافة العربية، بغداد . العراق، بلا تاريخ.
١٤. ديوان بشار بن برد، (ت١٦٧ هـ)، ديوان بشار ، الناشر العلامة محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، تونس، ١٣٨٦هـ . ١٩٦٦م .
١٥. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، (ت١٩٤١م)، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩هـ .
١٦. شرح التلخيص في علوم البلاغة، لجلال الدين بن عبدالرحمن القزويني، (ت٧٣٩هـ)، دار الجيل، بيروت، لبنان، بلا تاريخ .
١٧. شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، للشيخ محمد الحبيب بن الخوجة ، الدار العربية للكتاب تونس ، بلا تاريخ .
١٨. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، (ت٦٦٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٢ هـ . ١٩٨٢ م .
١٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، (ت٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ.
٢٠. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي ، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان . الأردن ، ط٣ ، ١٤٢٣هـ .٢٠٠٣م .

٢١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المعروف بـ(تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي، (ت٥٤١هـ)، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م .
٢٢. محمد الطاهر بن عاشور . حياته وآثاره ، بلقاسم الغالي ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
٢٣. مراتب النحويين ، لأبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي ، (ت٣٥١هـ)، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، مصر، ١٩٥٥م.
٢٤. معالم التنزيل المعروف بـ(تفسير البغوي)، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت٥١٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ . ١٩٩٧م .
٢٥. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، للدكتور أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م .
٢٦. مفاتيح الغيب المعروف بـ(التفسير الكبير)، وبـ(تفسير الرازي)، لأبي عبدالله فخر الدين محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المذهب الرازي، (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، مصر ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ.
٢٧. مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي ، (ت٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ . ١٩٨٧م .
٢٨. مقاصد الشريعة الإسلامية ، محمد الطاهر بن عاشور ، تحقيق ودراسة : محمد الطاهر الميساوي ، دار النفائس ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

٢٩. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي، (ت٤٣٧هـ)، تحقيق طلبة كلية الدراسات العليا والبحث العلمي . جامعة الشارقة، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي، الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة . كلية الشريعة والدراسات الإسلامية . جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩ هـ . ٢٠٠٨ م .